

Phonological Substitution In Ibn Hubayrah's Al-Ifsah 'An Ma'ani Al-Sihah

الإبدال الصوتي في الإفصاح عن معاني الصحاح لابن هبيرة

Received 2025-06-16
Accepted 2026-04-19
Published 2026-06-19

Omar Hilal Khalaf^{*1}, Jassim Muhammad Suhayl²

^{1,2}Department of Arabic Language. College of Education for
Humanities, University of Anbar, Iraq

omar.hum@uoanbar.edu.iq^{*1}, jassim1967@uoanbar.edu.iq²

To cite this article: Khalaf, Omar Hilal., Suhayl, Jassim Muhammad. (2026). Phonological Substitution In Ibn Hubayrah's Al-Ifsah 'An Ma'ani Al-Sihah. Ijaz Arabi: Journal of Arabic Learning, 9 (3), 1463-1476, DOI: <https://doi.org/10.18860/ijazarabi.V9i3.40883>

Abstract

This study investigates phonological substitution (al-ibdāl al-ṣawṭī) in Ibn Hubayrah's Al-Ifṣāḥ 'an Ma'ānī al-Ṣiḥāḥ, focusing on its role in the linguistic interpretation of Prophetic Hadith. Previous scholarship on Al-Ifṣāḥ has predominantly addressed its exegetical, theological, legal, and hadith dimensions, while its treatment of phonological substitution has not been examined as a distinct linguistic phenomenon. This study addresses this gap by identifying the principal patterns of phonological substitution in the work, examining their phonetic and articulatory bases, and determining how Ibn Hubayrah employs them in explaining lexical forms and Hadith meanings. A descriptive-analytical approach, complemented by inductive and comparative analysis, was applied to relevant passages from Al-Ifṣāḥ and compared with linguistic discussions in classical and modern Arabic sources. The findings identify recurrent substitutions involving bā'/mīm, zāy/sīn, hamzah/hā', and sīn/ṣād. These substitutions are associated with articulatory proximity, shared phonetic features, phonetic ease, dialectal variation, and contextual factors. More significantly, the analysis demonstrates that Ibn Hubayrah treats phonological variation as linguistic evidence for explaining lexical forms and, in particular cases, for clarifying the semantic interpretation of Hadith expressions. The novelty of this study lies in establishing the interpretive function of phonological substitution within a classical Hadith commentary, thereby connecting phonological analysis directly with lexical and semantic interpretation. This finding extends the understanding of Al-Ifṣāḥ beyond its established exegetical and Hadith-oriented significance and demonstrates its value as a source for studying the interaction between classical Arabic phonological thought and the interpretation of Prophetic Hadith.

Keywords: Phonological Substitution; Ibn Hubayrah; Al-Ifsah; Prophetic Hadith; Arabic Linguistics.

المقدمة

يُعدّ علم الصوت ركيزة أساسية في الأداء اللغوي السليم الذي يحفظ للغة رونقها ويؤثر في المتلقّي (Al-Hamad, 2003). وقد أدرك علماء العربية الأوائل قيمة الصوت؛ فاعتبره الجاحظ آلة اللفظ وجوهر التأليف (Al-Jahiz, 1998)، بينما ربط الرافعي بين فصاحة النبي ﷺ وحسن الملازمة

بين الحروف ومخارجها (Al-Rafi'i, 2005). هذا الوصف يُبرزُ العناية الفائقة بمخارج الحروف وانسجامها الصوتي في النطق النبوي، مما يؤكد أن أيّ تغيير في صوت الحرف (الإبدال) لا بد أن يكون مقصودًا ويخدم غاية دلالية أو تسهيلية تضمن "حسن الملائمة" و"استواء التأليف". في هذا السياق، يُعدّ الإبدال الصوتي ظاهرة لغوية عميقة تتجاوز مجرد التغيير العرضي للأصوات. فالدراسات الصوتية الحديثة، ضمن علم الصوتيات (Phonology)، تنظر إلى الإبدال ليس كخلل، بل كآلية صوتية منتظمة تهدف إلى تحقيق التوازن الصوتي، أو تسهيل النطق، أو تمييز الدلالات. هو في جوهره تغيير يحدث في صوت حرف ليحلّ محله صوت آخر، وهو أمر شائع في لغات العالم، بما فيها العربية، سواء على مستوى اللهجات أو في سياقات معينة داخل اللغة الفصحى هذه الظاهرة، وإن كانت تبدو أحيانًا عفوية، إلا أنها غالبًا ما تكون محكومة بقوانين صوتية دقيقة تهدف إلى المحافظة على الإيقاع اللغوي وسلاسته، وتلعب دورًا أساسيًا في تحديد الصورة النهائية للكلمة.

من هذه القيمة العلمية والأهمية الصوتية، جاءت رغبتي بدراسة ظاهرة الإبدال الصوتي في أحد الكتب التي شرحت معاني الحديث النبوي الشريف، فوقع اختياري على كتاب: "الإفصاح عن معاني الصحاح" لابن هُبَيْرَة (ت ٥٦٠هـ). حيث يمتزج في هذا الكتاب جانب اللغة بلفظ الحديث النبوي الشريف، وهو ما يلبي الطموح البحثي ويدعم الرغبة في التشرف بالانتماء إلى مدرسة الحديث النبوي الشريف واللغة العربية، والغور في أسرارها وأصواتها وجميل علومها. وقد كان من دواعي اختيار هذا العنوان المتخصص بلغة الحديث النبوي الشريف هو تفرد كآول كتاب شرح الصحيحين بعد جمعهما على يد أبي عبدالله محمد بن أبي نصر الحميدي (ت ٥٢٠هـ) في كتاب "الجمع بين الصحيحين" (Ibn al-Jawzi, 1992)، مما يجعله مجالاً بكرًا لدراسة هذه الظاهرة اللغوية. ولذا جاء البحث موسومًا بـ: (الإبدال الصوتي في كتاب الإفصاح عن معاني الصحاح لابن هُبَيْرَة). بناءً على ما تقدم، تتضح مشكلة البحث في غياب الدراسات المتخصصة التي تناولت ظاهرة الإبدال الصوتي تحديدًا في كتاب "الإفصاح"، على الرغم من القيمة اللغوية العالية لهذا المصدر، مما يترك فجوة في فهمنا لكيفية معالجة ابن هُبَيْرَة للجوانب الصوتية في شرح الحديث النبوي، وتأثير ذلك على دلالاته. أهمية البحث: تسليط الضوء على ظاهرة الإبدال الصوتي في كتاب "الإفصاح" كونها من الظواهر المهمة في الجانب الصوتي، البحث يتعلق بكتاب يُعدّ أول من شرح الصحيحين (البُخاري ومُسلم) من حديث نبينا محمد ﷺ، مما يجعله كتابًا زاخرًا بالتراث وجديرًا بالنظر والتدبر. حاجة المكتبات للمزيد من البحوث والمؤلفات والدراسات التي تمتاز فيها علوم اللغة بالحديث النبوي الشريف. ويهدف البحث إلى سدّ الفجوة البحثية المتعلقة بالدراسات الصوتية في شروح الحديث، وتقديم رؤى حول العلاقة بين الفصاحة النبوية والقوانين اللسانية من خلال تحليل مصدر أصيل وهو كتاب "الإفصاح". التعريف الموجز بشخصية الوزير ابن هُبَيْرَة وقيمة كتابه العلمية في الربط بين

اللغة والحديث. استقصاء أنواع الإبدال الصوتي وتحليل منهجه في معالجتها، مع بيان أثر ذلك في توجيه معاني الأحاديث النبوية دلاليًا وصرفيًا. تعددت الدراسات حول كتاب الإفصاح، فتناول الخزيم (٢٠٠١) الجانب التفسيري، والميمان (٢٠٠٣) الجانب العقدي، بينما ركزت دراسة سارة بنت سعيد (١٤٢٣هـ) ودراسة د. وائل عبدالله (٢٠١٨) على الجوانب الفقهية والحديثية، وبالأستقراء، تبين خلو هذه الدراسات من تناول اللساني الصوتي المتخصص، مما يؤكد أصالة هذا البحث.

منهجية البحث

اعتمد الباحثان على المنهج التحليلي في دراسة النصوص المستنبطة، من خلال تحليل النصوص التي استنبطها من كتاب "الإفصاح" تحليلًا صوتيًا لغويًا. ركز على تفكيك بنية الكلمات والجمل الصوتية لدراسة نوع الحروف، وتحديد خصائصها الهجائية المستخدمة فيها. وكذلك مخرجها، أي: دراسة مخارج أصوات تلك الحروف من جهاز النطق (مثل الشفتين أو الحلق). كما ركز على درجة التقارب أو التباعد بين مخارج الحروف، مما يكشف عن طبيعة العلاقات الصوتية بينها. كما اعتمدا على المنهج الاستقرائي والمنهج المقارن في تتبع الأقوال ومقارنتها من كتب الحديث واللغة عبر منهجية علمية مزدوجة لاستقراء آراء العلماء من خلال المناهج: المنهج الاستقرائي: حيث قاما بتتبع أقوال العلماء في كتب الحديث واللغة، ثم استعرضا ما قيل حول المسائل الصوتية ذات الصلة من مصادرها الأصلية. المنهج المقارن: بعد جمع الأقوال، قاما بمقارنتها ببعضها البعض، لتحديد نقاط الاتفاق والاختلاف بين العلماء، ومن ثم قدمًا رأيهما الشخصي الذي بُني على هذا التتبع والمقارنة الدقيقة.

النتائج والمناقشة

ترجمة موجزة للكتاب ومؤلفه

أولاً: ترجمة الوزير ابن هبيرة (٤٩٩-٥٦٠هـ): يُعد يحيى بن محمد بن هبيرة (Ibn al-Jawzi)، أحد أبرز الشخصيات العلمية والسياسية في القرن السادس الهجري. وُلد في قرية "بني أوقر" بالعراق (Ibn Hubayrah, 2014)، ونشأ في بيئة حثته على العلم رغم ضيق ذات اليد، فارتحل إلى بغداد شابًا، حيث أتم حفظ القرآن الكريم بالقراءات، وتلقى علوم الحديث واللغة على يد كبار علماء عصره (Ibn al-Jawzi, 1992)، ومن أبرزهم اللغوي الشهير "أبو منصور الجواليقي" (Ibn al-Jawzi, 2011)، وهو ما أرسى لديه قاعدة لسانية متينة ظهرت آثارها في مصنفاته.

مسيرته ومكانته: تدرّج ابن هبيرة في المناصب الإدارية حتى قلّده الخليفة المقتفي لأمر الله الوزارة سنة (٥٤٤هـ) (Al-Dhahabi, 1985)، فعُرف بـ "الوزير العادل" (Ibn al-Jawzi, 1992)، ورغم انشغاله بأمور الدولة، لم ينقطع عن التصنيف والتدريس، فكان مجلسه مجمعا للعلماء. تميّز بكونه "سلفي العقيدة، حنبلي المذهب" (Ibn Rajab, 2005)، وهو انتماء أثر بشكل مباشر في منهجه اللغوي؛ حيث كان يميل إلى إمرار النصوص دون تأويل، والالتزام بالظاهر اللغوي مع تعظيم هيبة الموصوف سبحانه (Ibn Rajab, 2005)، ممّا جعل تحليله لظواهر مثل "الإبدال" ينضبط بضوابط الورع الفقهي والدقّة اللغوية.

آثاره العلمية: ترك ابن هبيرة نتاجا علميا غزيرا يعكس تبحره في فنون شتى، ومن أهمّها:

١. الإفصاح عن معاني الصحاح: وهو موضوع هذا البحث، ويُعدّ من أسبق شروح الصّحّاحين (Ibn al-Khallikan, 1972).

٢. المقتصد في النحو: وهو مصنّف يُبرز تمكنه من القواعد النحويّة (Ibn Rajab, 2005).

٣. مختصر إصلاح المنطق: في اللغة (Ibn Rajab, 2005; Haji Khalifa, 2021).

٤. أرجوزة في المقصور والممدود: (Ibn Hubayrah, 2014).

وفاته وثناء العلماء عليه: تُوفي ابن هبيرة مسموماً سنة (٥٦٠هـ) (Ibn al-Jawzi, 1992)، ونال ثناء واسعاً من المؤرخين؛ فوصفه ابن الجوزي بمعرفته الحسنة بالنحو واللغة واتباع السنّة (Ibn al-Jawzi, 1992)، وأثنى عليه ابن الأثير وابن رجب الحنبلي بوفور العقل والدين والرأي السديد (Ibn al-Athir, n.d.; Ibn Rajab, 2005).

ثانياً: التعريفُ بكتاب "الإفصاح عن معاني الصّحاح"

١. نسبة الكتاب ومكانته: يُعدّ كتاب "الإفصاح" العلم الأبرز الذي عُرف به الوزير ابن هبيرة؛ حتى غلب عليه لقب "مصنّف الإفصاح" (Ibn Rajab, 2005). والكتاب في أصله شرح موسوعيّ لصحّاحي البخاري ومسلم، وقد أفرد الناس منه لاحقاً الجزء المتعلّق بحديث (من يرد الله به خيراً يفقه في الدين) لما تضمّن من تفصيل لمسائل الفقه المتفق عليها والمختلف فيها بين الأئمة الأربعة، حتى اشتهر هذا الجزء منفرداً باسم "الإفصاح" (Ibn Rajab, 2005).

٢. موضوع الكتاب ومنهجه: قام ابن هبيرة ببناء شرحه مستنداً إلى كتاب "الجمع بين الصّحّاحين" للحميدي الأندلسي (ت ٥٢٠هـ)، الذي أثنى على ترتيبه على أسماء الرجال (Ibn al-Jawzi, 1992). وتتجلّى أهميّة "الإفصاح" في كونه أوّل شرح يجمع بين الصّحّاحين معاً بأسلوب علميّ رصين، وقد وُصف بأنّه "عمل مجمعيّ"؛ لكون المصنّف كان يداول المسائل اللغوية والشرعية مع علماء عصره في مجالس عُقدت لهذا الغرض، ممّا أثري الكتاب بفوائد نحويّة وصرفيّة وصوتيّة دقيقة (Ibn Hubayrah, 2014).

٣. أثر الكتاب وقيمتها العلمية: حظي الكتاب بعناية فائقة من العلماء؛ حيث انتقى منه ابن الجزري زبدة كلامه في كتابه "محض المحض"، واختصره الحسن الفارسي في كتاب "الحجة"، الذي لخصه لاحقا ابن حجر العسقلاني (Al-Babani, 1900; Haji Khalifa, n.d). وقد أثنى عليه الحافظ ابن رجب واصفا استنباطات ابن هبيرة فيه بالدقة والغربة مما يجعله مرجعا لغويا وشرعيا فريدا (Ibn Rajab, 2005).

الإبدال الصوتي عند ابن هبيرة في كتابه "الإفصاح"

عرّف أهل اللغة الإبدال بأنه: «قيام الشيء مقام الشيء الذاهب، يُقال: هذا بدل الشيء وبديله»، وبدل الشيء غيره، والجمع أبدال (Ibn Faris, 1979; Ibn Manzur, 1993)، كما ورد في لسان العرب وتهذيب اللغة للأزهري (Al-Azhari, 2001)، أما الإبدال اصطلاحاً فقد عرّفه علماء اللغة بأنه: «إقامة حرفٍ مكان حرفٍ مع الإبقاء على سائر أحرف الكلمة... ولا بُدَّ من شرط التقارب في المخرج بينهما» (Abu al-Tayyib al-Lughawi, 1960)، أو هو: «أن تُقيم حرفاً مقام حرفٍ في موضعه، إمّا ضرورة، وإمّا استحساناً» (Ibn Ya'ish, 1973).

ويُعدّ الخليل بن أحمد الفراهيدي أول اللغويين الذين ذكروا ظاهرة الإبدال في مؤلفاتهم، وهو أول من وضع مصطلح (الإبدال) ومثّل له (Al-Yassin, 1980)، ثم تبعه تلميذه سيبويه، إذ عقّد له باباً سماه: باب حروف البديل (Sibawayh, 1988)، وقد جعل ابن فارس الإبدال سنة من سني العرب (Ibn Faris, 1997). أما المُحدثون فبعضهم يرى أن أصل الإبدال يرجع إلى اللهجات العربية، ومن أولئك المُحدثين الدكتور حسام النعيمي (Al-Nu'aimi, 1980)، ويرى الدكتور عبد الصبور شاهين أن: «الإبدال لا يكون إبدالاً حقاً إلا إذا كان بين البديل والمُبدل منه علاقة صوتية» (Shahin, 1966).

حُرُوفُ الإبدال: اختلف العلماء في عدد حُرُوفِ الإبدال، فعدها سيبويه أحدَ عَشَرَ حرفاً، ثم عدّها في موضع آخر اثني عشر حرفاً بزيادة اللام (Sibawayh, 1988)، وذكر المبرّد، وأبو علي الفارسي أنها أحدَ عَشَرَ حرفاً دونَ النون (Al-Farisi, 1999). أنواعُ الإبدال: للإبدال نوعانِ هُما: الإبدال القياسي (الصرفي)، قال السيوطي: «الإبدال قِسْمَان: شائعٌ وغيره» (Al-Suyuti, n.d)، وعرّفه أحدُ المُحدثين بأنه: «إبدال حرفٍ من غيره لِضَرُورَةِ تَصْرِيفِيَّةٍ» (Al-Bawab, n.d)، وحُرُوفُ هذا النوع من الإبدال عدّها ابن مالك ثمانية حُرُوف (Ibn Malik, 1968)، أمّا النوع الثاني فهو: الإبدال السّماعي وحُرُوفُهُ اثنان وعُشرون حرفاً (Al-Azhari, 2000; Ibn Malik, 1968)، وهذا النوع لا يخضع لقواعد مطّردة، بل هو ضربٌ من اختلاف اللهجات (Al-Antaki, n.d).

دراسة نماذج الإبدال في كتاب الإفصاح

١. الإبدال بين الباء والميم

الباء والميم حرفان شفويان مجهوران، متقاربان في المخرج والصفة باتفاق العلماء (Sibawayh, 1994; Nasr, 1988)، وليس فرق كبير بينهما غير أن الهواء مع الباء يتخذ مجراه من الفم، أما مع الميم فيتخذ مجراه من الأنف (Anis, 2017)، غير أنهما اختلفا في صفة أخرى، وهي أن الباء حرف شديد، والميم حرف متوسط، أي: ليس شديداً ولا رخواً، شبيهة بأصوات اللين (Anis, 1998).

يقول سيبويه: «ومنها حرف شديد يجري معه الصوت، لأن ذلك الصوت غنة من الأنف... وكذلك الميم» (Sibawayh, 1988). ويرى مكي القيسي أن الباء والميم كلاهما شديد، إلا أن الميم فيه غنة، ولولا هذه الغنة التي في الميم وجريان النفس معها لكانت باء، إذ كلاهما من مخرج واحد، وكلاهما مجهور شديد (Al-Qaysi, 1996). وقد اختلف العلماء في المصطلح؛ فبعضهم سماها المتوسطات وبعضهم سماها البينية (Al-Andalusi, 1998).

أما عند العلماء المحدثين فالميم حرف متوسط بين الشدة والرخاوة، والغنة خروج النفس المجهور من الأنف عند النطق بالصوت (Al-Hamad, 1986). أما علماء اللغة والتجويد فقد وقع اختلاف بينهم في عدد الحروف التي بين الشدة والرخاوة؛ فعدها قسم ثمانية أحرف مجموعة في (لم يروعننا) (Al-Sirafi, 2008)، وعند أغلب علماء التجويد خمسة أحرف مجموعة في (لن عمر) (Ibn al-Jazari, n.d).

هذا النوع من الإبدال ورد في الإفصاح في قول رسولنا الكريم ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا...» (Ibn Hubayrah, 2014). قال ابن هبيرة في لفظة (بيد أنهم): «وقوله: "بيد أنهم" قال أبو عبيد: غير أنهم، وعلى أنهم، ويقال مبد بالميم، والميم تدخل على الباء» (Al-Harawi, 1964)، ويرى ابن قتيبة أن الباء والميم شيء واحد مستشهدا بلفظي (بكة ومكة) (Ibn Qutaybah, 1958).

وهذا النوع من الإبدال كثير في العربية، ومن ذلك ما جاء عن الأصمعي في وصف السحاب: «بنات بخر وبنات مخر» (Ibn Ya'ish, n.d)، كما في قول طرفة بن العبد (Tarafah ibn al-Abd, 2002). يقول ابن هشام: «بيد، ويقال مبد بالميم... وله معنيان أحدهما (غير)، والثاني: أن تكون بمعنى: من أجل» (Ibn Hisham, 1985)، وقد استشهد النحاة على ذلك بقول النابغة الذبياني: (Al-Dhubyani, 1996; Sharrah, 2007). ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب وقول الشاعر الذي أنشده أبو عبيدة: (Al-Suyuti, 1966).

عمداً فعلت ذاك بيد أني أخاف إن هلك أن تُرتي

ويرى الباحثان أنّ الباء مُقدّم على الميم في الاستعمال مع كونهما من مخرج واحد؛ وتقديمه يأتي من لقوة الثّبر الذي فيه، مقارنة بالحاجة إلى ذلك لمن يريد إيصال فكرته للآخر؛ فوقع الكلام حين يكون بالباء أكثر من وقعه حين يكون بالميم، وقول رسولنا محمد ﷺ: «بيد أنّهم أوتوا الكتاب من قبلنا» أكثر وقعاً وأثراً. هذا التحليل يُظهر أنّ الإبدال بين الباء والميم هو نتيجة تقارب صوتيّ جوهريّ ويمكن تلخيصه في النقاط الآتية:

١. المخرج الموحد: كلاهما يخرجان من الشّفتين.
٢. صفة الجهر المشتركة: كلاهما صوتان مجهوران.
٣. الاختلاف في مجرى الهواء: الفرق الوحيد هو في مسار الهواء (الباء من الفم، والميم من الأنف). وهذا التقارب هو ما يفسر لماذا يمكن أن يحل أحدهما محل الآخر في سياقات مختلفة، مثل:

١. بَيْدَ /bæId/ و مَيْدَ /mæId/،
٢. أَغْبَطْتُ /ʔaɣbatʔat/ و أَغْمَطْتُ /ʔaɣmatʔat/،
٣. بَنَاتٍ بَخْرٍ /bana:t bɑxr/ و بَنَاتٍ مَخْرٍ /bana:t mɑxr/،
٤. بَكَّةَ /bakkah/ و مَكَّةَ /makkah/.

هذه الأمثلة تؤكد أنّ الإبدال بين هذين الحرفين هو ظاهرة صوتية مبررة علمياً، ولا تحدث إلا بين الأصوات التي تتقارب في خصائصها النطقية (Al-Hamad, 1986; Anis, 2017).

إبدال الزّاي سيناً

تُبدلُ الزّاي من السّين بسبب قرينهما في المخرج والصفة، فمخرجهما ممّا بين اللسان وفوق الثّنايا (Sibawayh, 1988)، لهذا تُبدلُ الزّاي من السّين، وعند ابن جني فمخرجهما: «ممّا بين الثّنايا وطرف اللسان» (Ibn Jinni, 1954)، ويرى الرّضويّ «أنّ الزّاي تُبدلُ من السّين والصّاد الساكنتين الواقعتين قبل الدّال، لأنّ الزّاي حرفٌ مجهورٌ كالّدال ويوافق الصّاد والسّين في المخرج والصفير. نحو: يزدل، أي: يسدل» (Al-Astarabadi, 1975).

أمّا المُحدّثون فقد ذهبَ عددٌ منهم إلى أنّ الزّاي والسّين صوتان صامتان، احتكاكيان مستفلان، أسنانيان لثويان (Al-Antaki, n.d.)، مرقّقان رخوان منفتحان صفيّان (Al-Antaki, n.d.)، ولتقريب صورة النّطق يهتّزّ الحبلان الصّوتيان مع الزّاي، فتصبح مجهورة، في حين يسكن الحبلان الصّوتيان مع صامت السّين، فتصبح مهموسة (Zurfah, 2012). ومن شواهد هذا الإبدال في لهجات القبائل قولهم: «الأزد لغة في الأسد» (Ibn Manzur, 1993)، ويقولون أيضاً (المهراز) والصّواب: (مهراس)، مأخوذ من الهرس، وهو الأكل الشّديد (Al-Lakhmi, 1990).

وقد ذكر ابنُ هُبيرة هذا النوع من الإبدال وهو يتكلّم عن كلمة (القَسِيّ) في الحديث النبوي الشريف: «عن عليّ قال: «نهاني النبي ﷺ عن التّختم بالذهب، وعن لباس القَسِيّ...» (Ibn Hubayrah, 2014)، إذ قال ابنُ هُبيرة: «والقَسِيّ ثياب منسوبة إلى القس من أرض مصر، كان فيها حرير، وقيل: الأصل فيها قَزّ بالزاي، فأبدلوا بينها سينا ليُقَدّم حرف الاستعلاء» (Ibn Hubayrah, 2014). السّين والزّاي يتقاربان في المخرج، فهما من الحروف الأُسليّة، لأنّ مبدأها من أسلة اللّسان، وهي مستدق طرف اللّسان (Al-Farahidi, n.d)، والفرق بينهما هو أنّ صوت الزّاي رخو مجهور أمّا السّين فرخو مهموس (Anis, 2017).

وقد ذكر السيوطي أمثلةً تتبادلُ بينهما السّينُ والزّاي والمعنى واحد، إذ قال: «ومن الزّاي والسّين: مكان شَأَز وشَأَس: غليظ، ونزغه ونسغه: طعنه، والشازب والشاسب: اليابس، والزّعل والسّعل: النشاط، وتزلّغ جلده وتسلّغ: تشقّق، وخزقه وخسقه، ومعجس القوس ومعجزها: مقبضها» (Al-Suyuti, n.d). ويرى الباحثان أن أهم ما أعطى للإبدال رواجًا في مثل هذه الحالات يعود إلى قُرب المخرّجين بينهما. ومن خلال تحليل النص صوتيًا لحرفي الزاي والسين تبين لنا الآتي:

١. المخرج الصوتي: الزاي والسّين يخرجان من مخرج متقارب جدًّا؛ فكلاهما يُصنّفان ضمن الأصوات الأسنانِيّة اللثويّة (Alveolar-Dental)، ورمزهما في IPA هما /z/ للزاي و /s/ للسّين.

٢. الصفات الصوتية: كلاهما صوتان احتكاكيان (Fricative)، يمرّ الهواء عبر ممَرّ ضيق ليُحدث صفيّرًا.

٣. الجهر والهمس: هنا يكمن الاختلاف الأساسي؛ فالزاي /z/ صوت مجهور (Voiced) تَهتَرّ معه الأوتار الصوتية، بينما السّين /s/ صوت مهموس (Voiceless) لا تَهتَرّ معه الأوتار.

هذا التقارب يسمح بحدوث الإبدال، كما في الأمثلة الآتية:

١. الأزد /ʔalʔazd/ و الأسد /ʔalʔasad/،
 ٢. المهرّاز /ʔalmihra:z/ و المهرّاس /ʔalmihra:s/،
 ٣. القَسِيّ /ʔalqasi:/ و قَزّ /qazz/،
 ٤. شَأَز /ʃaʔz/ و شَأَس /ʃaʔs/،
 ٥. نزغه /nazʕahu/ و نسغه /nasʕahu/.
- هذه الأمثلة تؤكد أن الإبدال هو ظاهرة صوتية طبيعية تحدث بين الحروف المتقاربة، ويكون الفرق الرئيسي بينهما هو صفة الجهر أو الهمس.

إِبْدَالُ الْهَمْزَةِ هَاءً

ينظر القُدماءُ إلى أَنَّ الهمزة والهاء صوتان حلقيان يخرجان من أقصى الحلق، فوصفت الهمزة بالجهر والشدة، أما الهاء فهو صوت مهموس رخو (احتكاكي)، فالجهر: «حرف أشيع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتّى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصّوت»، أما الهمس فهو: «حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتّى جرى النَّفس معه» (Sibawayh, 1988)، فيكون ضابط الجهر والهمس عند القُدماء هو جريان النَّفس مع الحرف أو عدمه (Al-Nu'aimi, 1980).

أما المحدثون فيرون أَنَّ الهمزة والهاء صوتان حنجريان أو مزماريان (Laryngeal/Glottal)، الأوّل شديد، والثاني احتكاكي (Omar, 1997)، وإذا كانت الهمزة عند القُدماء صوتاً مجهوراً، فهي عند المُحدثين صوتٌ مهموس، أو هو صوتٌ لا مهموس ولا مجهور (Omar, 1997)، أما صوت الهاء فقد عُدَّ عند الفريقين صوتاً مهموساً، ومن المُحدثين من نبّه إلى أنّه قد يُجهرُ به في ظروف لغويّة خاصّة (Anis, 2017).

فأما إبدال الهاء من الهمزة فهو إبدال صالح على سبيل التّخفيف؛ إذ الهمزة حرف شديد مستفل، والهاء حرف مهموس خفيف، ومخرجهما متقارب (Ibn Ya'ish, n.d). ولذلك أقرَّ المحدثون بصعوبة النطق بالهمزة؛ لأنه صوت عسير النطق يحتاج إلى جهد عضليّ كبير، فسعت بعض القبائل العربيّة إلى التّخلص منه بطرق مختلفة (Abd al-Tawab, 1997). ومن أجل هذا القرب أبدلت العرب من الهاء همزة، ومن الهمز هاءً (Al-Qaysi, 1996). ومن أمثلة ذلك قولهم: أَرَقْتُ: هَرَقْتُ، وأَرَدْتُ: هَرَدْتُ، وأَرَحْتُ: هَرَحْتُ، وأنزْتُ: هَنَزْتُ (Al-Suyuti, n.d).

وقد جاء هذا النوع من الإبدال في "الإفصاح" في الحديث النبوي الشريف: «من يرد الله به خيراً يُفقهه في الدّين» (Ibn Hubayrah, 2014). إذ قال ابنُ هُبيرة تعقيباً على كلمة (يُفقهه): «فأما يُفقهه، فهذه الهاء مبدلة من الهمزة؛ لأنَّ أصلَ فقه الرجل فقيّ... ومعنى فقه الرجل: غاص على استخراج معنى القول، من قولهم: فقأت عينه إذا بخصتها بخصاً استخرجت به شحمتها» (Ibn Hubayrah, 2014). وقد أشار ابنُ فارس إلى أَنَّ (فقه) أصل واحد يدلّ على إدراك النّبيء والعلم به (Ibn Faris, 1979). وذكر الجوهريُّ أَنَّ الفقه هو الفهم (Al-Jawhari, 1987). أما كلمة (فقاً) فقد ذكرها ابنُ فارس بأنّها تدلّ على فتح الشيء وتفتح (Ibn Faris, 1979). وبهذا يكون ابنُ هُبيرة قد انفرد بجعل الأصل للفظلة (فَقِهَ) هو (فَقِيَ)، ويبدو لنا أَنَّ التعمّق في المعنى هو مَنْ جَعَلَهُ يقول بهذا، ليصل إلى أَنَّ المعنى الحقيقي للفقه هو استخراجٌ للغوامض.

التحليل الصوتي لحرّفي الهمزة والهاء:

- المخرج الصوتي: الهمزة والهواء يخرجان من مخرج واحد أو متقارب جداً، وهو أقصى الحلق أو الحنجرة (Laryngeal). ورمزاهما في IPA هما /ʔ/ للهمزة و /h/ للهاء.

٢. الشدة والاحتكاكية: هنا يكمن الاختلاف الرئيسي بينهما، فالهمزة /ʔ/: صوت شديد (Plosive/Stop)، أي أن الهواء ينحبس خلف الأوتار الصوتية ثم يخرج باندفاع مفاجئ، بينما الهاء /h/: صوت احتكاكي (Fricative)، أي أن الهواء يمر عبر ممر ضيق في الحنجرة ليحدث صوتاً احتكاكياً.

٣. الجهر والهمس: الهمزة صُنِّفت قديماً مجهورة وحديثاً مهموسة، أمّا الهاء: فمتفق على أنها صوت مهموس (Voiceless).

هذا التقارب يفسّر لجوء القبائل للإبدال طلباً للتخفيف، كما في الأمثلة الآتية:

١. أَرَقْتُ /ʔaraqt/ و هَرَقْتُ /haraqt/،

٢. أَرَدْتُ /ʔaradt/ و هَرَدْتُ /haradt/،

٣. يُفَقِّهُه /yufaqqiʔuhu/ (الأصل عند ابن هبيرة) و يُفَقِّهه /yufaqqihhu/.

يوضح التحليل أنّ الإبدال بين الهمزة والهاء هو نتيجة تقارب صوتي جوهري في المخرج، مع تميّز الهاء بأنها أخفّ وأسهل في النطق من الهمزة التي تحتاج جهداً عضلياً أكبر.

إبدال السين صادًا

السين والصاد صوتان مهموسان رخوان متدانيان في المخرج والصفة، ويرى علماء اللغة أن هذا التداني هو الذي سَوَّغ الإبدال بينهما، فهما من مخرج واحد (Al-Mubarrad, n.d.; Sibawayh, 1988): «بين طرف اللسان وفوق الثنايا» (Sibawayh, 1988)، ويشتركان في صفة الهمس والصفير والرخاوة، إلا أن السين منفتح، والصاد مطبق، فالنظير المنفتح لصوت الصاد هو صوت السين (Anis, 2017).

أما صفاتهما فلا خلاف فيهما بين علماء اللغة القدماء والمحدثين (Bishr, 2000; Al-Hamad, 2004)، وقد جاء في كلام العرب هذا الإبدال كثيرًا، وذكر صاحب اللسان عن قطرب أنّ قوما من بني تميم يقلبون السين صادًا عند أربعة أحرف (الطاء والقاف والغين والحاء) إذا كان بعد السين، نحو قولهم: سراط وصراط وبسطة وبصطة (Ibn Manzur, 1993).

قال سيبويه: «ولولا الإطباق لصارت الطاء دالا، والصاد سينا...» (Sibawayh, 1988). وما نراه متحققًا في إبدال السين صادًا يكون إذا جاء بعدها واحد من حروف الاستعلاء حيث تجتذب هذه الحروف السين عن سفليها إلى تعاليهنّ، والصاد مستعلية، وهي أخت السين في المخرج (Ibn Jinni, 1999). وقد ذكر ذلك ابن هبيرة من خلال قاعدة ثابتة وافق فيها ما جاء به الأقدمون، إذ قال: «وكل سين أصلية يتقدمها حرف الاستعلاء فجائز أن تبدل زايًا وصادًا، وحروف الاستعلاء تجمعها هذه الكلمات وهي: (ضغط قص خط) (Ibn Hubayrah, 2014). وزاد ابن السيّد البطلوسي حرفًا خامسًا

وهو (العين)، وذكرها على أساس قاعدة ثابتة: «كلّ سين وقعت بعدها عين أو غين أو خاء أو قاف أو طاء جاز قلبها صادًا» (Al-Batalyusi, 1983; Al-Suyuti, n.d).

وقد اشترط البطليوسي ثلاثة شروط في هذا الإبدال: أن تكون السين متقدمة على هذه الحروف، وأن تكون مقاربة لها، وأن تكون السين هي الأصل؛ لأنّ الأضعف يقلب إلى الأقوى، ولا يقلب الأقوى إلى الأضعف (Al-Batalyusi, 1983)، فالصاد أقوى من السين لأنّها مستعلية، ويتصل أقصى اللسان بأدنى الحلق حين النطق بها، فتوافق السين في الهمس والصّفير ابتعادًا عن الثقل الناتج لانتقال من حرف مستفل إلى مستعل، فيتجانس الصوت (Al-Astarabadi, 1975; Ibn Ya'ish, n.d).

التحليل الصوتي لحرفي السين والصاد:

- المخرج الصوتي: السين والصاد يخرجان من مخرج واحد، وهو الأسنان اللثوية (Alveolar-Dental). ورمزهما في IPA هما /s/ للسين و /s^h/ للصاد المطبق.
 - الهمس والرخاوة: يشترك الحرفان في كونهما صوتين مهموسين (Voiceless) ورخوين (Fricative)؛ وهذا يعني أنّ الأوتار الصوتية لا تهتز عند النطق بهما.
 - الإطباق والاستعلاء: هنا يكمن الاختلاف الجوهرى بينهما. فالسين /s/ صوت مفتوح (Plain) يظلّ اللسان فيه منخفضًا، بينما الصاد /s^h/ صوت مطبق (Emphatic)، يرتفع فيه اللسان نحو الحنك الأعلى، مما يضفي على الصوت غلظة أو قوة.
- يُظهر التحليل الصوتي أنّ الإبدال بين السين والصاد إنّما هو نتيجة تقارب صوتيّ كبير بينهما، والاختلاف الوحيد هو صفة الإطباق والاستعلاء. هذا الاختلاف هو ما دفع القبائل العربية إلى إبدال السين بالصاد عندما تجاورها حروف قوية أو مستعلية (مثل الطاء والقاف)، وذلك لتجانس الصوت وتجنب الثقل في النطق الناتج عن الانتقال من صوت مستفل (السين) إلى صوت مستعل. وهذا ما يؤكد أن الإبدال هو ظاهرة صوتية مبررة علميًا وتخضع لقوانين الانسجام الصوتي في اللغة.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصّالحات، وبَعَدَ هذه الرّحلة العلميّة في رحاب الحديث النبويّ الشريف، في حوار شيق بينه وبين علم اللّغة، يتبيّن لنا كيف تتجلّى أهميّة معرفة علوم اللّغة في فهم المقاصد الشرعيّة من الأحاديث النبويّة الشريفة، من خلال ظاهرة الإبدال الصوتي في كتاب الإفصاح عن معاني الصّحاح لابن هُبيرة، إذ كان مدارّ البحث في قسمه الأوّل حول التّركيز على شخصيّة ابن هُبيرة، وكيف كانت مثالاً وقُدوةً في العطاء والإبداع، ثمّ التّركيز على كتابه القيم "الإفصاح عن معاني الصّحاح" من خلال مُوجز مُختصر لِيُسهم في التّعريف فيه وفي جُهوده، ثمّ ركّز البحث في قسمه

الثاني على ظاهرة الإبدال الصوتي في كتاب "الإفصاح"، إذ عرضنا فيه تعريفًا عامًا عن تلك الظاهرة، ثم بينّا كيف استعمل ابن هُبيرة الإبدال الصوتي في كتابه، من خلال أمثلة تعكس مدى اهتمامه بجانب اللغة في إخضاعه للتصوُّص، وشرحه لمعاني حديث رسول الله ﷺ، وقد أشرك البحث الكثير من آراء العلماء "قُدماء ومُحدثين" ليكون أقرب للفهم والتَّصوُّر، كما أنَّ البحث لم يخلُ من رأي الباحثين، لتكتمل دائرة النفع، ونسهم جميعًا في تقديم محتوى نرجو أن يكون نافعًا ومفيدًا.

المصادرالمراجع

- Abd al-Tawab, R. (1997). *Fusul fi Fiqh al-Arabiyyah*. Maktabat al-Khanji.
- Abu al-Tayyib al-Lughawi, A. L. (1960). *Al-Ibdal*. tahqiq: Izz al-Din al-Tanukhi. Majma' al-Lughah al-Arabiyyah.
- Al-Andalusi, A. H. (1998). *Al-Bahr al-Muhit fi al-Tafsir*. Dar al-Fikr.
- Al-Antaki, M. (n.d.). *Al-Minhaj fi al-Qawa'id wa al-I'rab*. Dar al-Sharq.
- Al-Astarabadi, R. D. (1975). *Sharh Shafiyat Ibn al-Hajib*. tahqiq: M. Nur al-Din. Dar al-Kutub al-Ilmiyah.
- Al-Azhari, M. A. (2001). *Tahdhib al-Lughah*. tahqiq: M. Awad al-Mar'ib. Dar Ihya' al-Turath al-Arabi.
- Al-Babani, I. B. (1900). *Hadiyat al-Arifin: Asma' al-Mu'allifin wa Athar al-Musannifin*. Matba'at al-Ma'arif.
- Al-Batalyusi, I. S. (1983). *Al-Iqtisab fi Sharh Qawa'id al-Kuttab*. tahqiq: Mustafa al-Saqqa. Matba'at al-Ma'arif.
- Al-Bawab, A. (n.d.). *Al-Ibdal wa al-I'la' fi al-Lughah al-Arabiyyah*. Dar al-Fikr.
- Al-Dhahabi, S. D. (1985). *Siyar A'lam al-Nubala'*. tahqiq: Shu'ayb al-Arna'ut (3rd ed.). Mu'assasat al-Risalah.
- Al-Dhubyani, N. (1996). *Diwan al-Nabigha al-Dhubyani*. tahqiq: Abbas Abd al-Satir. Dar al-Kutub al-Ilmiyah.
- Al-Farahidi, K. A. (n.d.). *Kitab al-Ayn*. tahqiq: Mahdi al-Makhzumi & Ibrahim al-Samarra'i. Dar al-Rashid.
- Al-Farisi, A. A. (1999). *Al-Takmilah*. tahqiq: Hasan Shadhili Farhoud. Dar al-Uloun.
- Al-Hamad, G. Q. (1986). *Al-Dirasat al-Sawtiyyah 'inda 'Ulama' al-Tajwid*. Matba'at al-Irshad.
- Al-Hamad, G. Q. (2004). *Al-Madkhal ila Ilm al-Aswat al-Arabiyyah*. Dar Ammar.
- Al-Harawi, A. U. (1964). *Gharib al-Hadith*. tahqiq: M. Abd al-Mu'id Khan. Dar al-Kitab al-Arabi.
- Al-Jahiz, A. B. (1998). *Al-Bayan wa al-Tabyin*. tahqiq: Abdulsalam Harun (7th ed.). Maktabat al-Khanji.
- Al-Jawhari, I. H. (1987). *Al-Sihah: Taj al-Lughah wa Sihah al-Arabiyyah*. tahqiq: Ahmad Attar. Dar al-Ilm lil-Malayin.
- Al-Lakhmi, A. I. (1990). *Taqwim al-Lisan*. tahqiq: Abd al-Aziz Matar. Dar al-Ma'arif.
- Al-Mubarrad, M. Y. (n.d.). *Al-Muqtadab*. tahqiq: M. Abd al-Khaliq Adimah. Dar al-Kutub al-Ilmiyah.
- Al-Nu'aيمي, H. S. (1980). *Al-Dirasat al-Sawtiyyah 'inda al-Ulama' al-Arab*. Matba'at al-Irshad.

- Al-Qaysi, M. A. (1996). *Al-Kashf 'an Wujuh al-Qira'at*. tahqiq: Muhyi al-Din Ramadan. Mu'assasat al-Risalah.
- Al-Rafi'i, M. S. (2005). *Tarikh Adab al-Arab*. Dar al-Kitab al-Arabi.
- Al-Sirafi, A. S. (2008). *Sharh Kitab Sibawayh*. tahqiq: Ahmad al-Mahdali. Dar al-Kutub al-Ilmiyah.
- Al-Suyuti, J. D. (1966). *Al-Ashbah wa al-Naza'ir fi al-Nahw*. Dar al-Kutub al-Ilmiyah.
- Al-Suyuti, J. D. (n.d.). *Al-Muzhir fi Ulum al-Lughah wa Anwa'iha*. tahqiq: Fuad Jad al-Mawla. Dar al-Turath.
- Al-Yassin, M. H. (1980). *Al-Dirasat al-Lughawiyah 'inda al-Arab*. Dar al-Irshad.
- Anis, I. (1998). *Fi al-Lahajat al-Arabiyyah*. Maktabat al-Anjlo al-Misriyah.
- Anis, I. (2017). *Al-Aswat al-Lughawiyah*. Nahdet Misr.
- Bishr, K. (2000). *Ilm al-Lughah al-Amm: Al-Aswat*. Dar Gharib.
- Fayyad, S. (2004). *Al-Aswat al-Lughawiyah*. Dar al-Marikh.
- Haji Khalifa, M. A. (2021). *Kashf al-Zunun 'an Asami al-Kutub wa al-Funun*. Dar al-Kutub al-Ilmiyah.
- Ibn al-Athir, M. M. (n.d.). *Al-Kamil fi al-Tarikh*. Dar Sadir.
- Ibn al-Jawzi, A. F. (1992). *Al-Muntazam fi Tarikh al-Muluk wa al-Umam*. tahqiq: M. A. Ata & M. A. Ata. Dar al-Kutub al-Ilmiyah.
- Ibn al-Jawzi, A. F. (2011). *Mashykhah Ibn al-Jawzi*. tahqiq: Muhammad Mahfuz (4th ed.). Dar al-Gharb al-Islami.
- Ibn al-Jazari, S. D. (n.d.). *Al-Nashr fi al-Qira'at al-Ashr*. Dar al-Kutub al-Ilmiyah.
- Ibn Faris, A. F. (1979). *Mu'jam Maqayis al-Lughah*. tahqiq: Abdulsalam Harun. Dar al-Fikr.
- Ibn Faris, A. F. (1997). *Al-Sahibi fi Fiqh al-Lughah*. tahqiq: Ahmad Saqr. Dar al-Kutub al-Ilmiyah.
- Ibn Hisham, J. D. (1985). *Mughni al-Labib 'an Kutub al-A'arib*. tahqiq: Mazen al-Mubarak. Dar al-Fikr.
- Ibn Hubayrah, Y. M. (2014). *Al-Ifsah 'an Ma'ani al-Sihah*. tahqiq: Fuad Abdul-Baqi. Dar al-Kutub al-Ilmiyah.
- Ibn Jinni, A. F. (1954). *Sirr Sina'at al-I'rab*. Mustafa al-Babi al-Halabi.
- Ibn Jinni, A. F. (1999). *Al-Khasa'is*. tahqiq: Muhammad Ali al-Najjar. Dar al-Kutub al-Misriyah.
- Ibn Khallikan, A. S. (1972). *Wafayat al-A'yan wa Anba' Abna' al-Zaman*. tahqiq: Ihsan Abbas. Dar Sadir.
- Ibn Malik, M. A. (1968). *Tashil al-Fawa'id wa Takmil al-Ma'asid*. tahqiq: Muhammad Adnan Darwish. Dar al-Kitab al-Arabi.
- Ibn Manzur, M. M. (1993). *Lisan al-Arab*. Dar Sadir.
- Ibn Muflih, I. M. (1990). *Al-Mubdi' fi Sharh al-Muqni'*. Dar al-Alam al-Kutub.
- Ibn Qutaybah, A. M. (1958). *Ta'wil Mushkil al-Qur'an*. tahqiq: Ihsan Abbas. Dar al-Turath.
- Ibn Rajab, Z. D. (2005). *Dhayl Tabaqat al-Hanabilah*. tahqiq: A. Al-Uthaymeen. Maktabat al-Obeikan.
- Ibn Ya'ish, M. A. (n.d.). *Sharh al-Mufasssal*. Idarat al-Tiba'ah al-Muniriyyah.
- Nasr, M. S. (1994). *Nihayat al-Qawl al-Mufid fi Ilm al-Tajwid*. Maktabat al-Safa.
- Omar, A. M. (1997). *Al-Bahth al-Lughawi 'inda al-Arab*. Alam al-Kutub.
- Shahin, A. S. (1966). *Al-Manhaj al-Sawti lil-Binyah al-Arabiyyah*. Dar al-Ma'arif.
- Sharrab, M. M. (2007). *Sharh Diwan al-Nabigha al-Dhubyani*. Dar al-Basel.

Sibawayh, A. B. (1988). *Al-Kitab*. tahqiq: Abdulsalam Harun. Maktabat al-Khanji.

Tarafah ibn al-Abd. (2002). *Diwan Tarafah ibn al-Abd*. Dar Sadir.

Zurfah, S. (2012). *Al-Aswat al-Lughawiyyah*. Dar al-Kitab al-Jam'i.